الآداب
المجلد: 25، العـدد: 01، ديسمبر 2025
الصفحات: 465 – 485
ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

كرة القَدم وسلطويَّةِ الخطابِ، قراءة نقديَّة ثقافيَّة في مفارقةِ المتنِ والهامشِ

Football and the Authoritative Discourse: A Cultural Critical Reading of the Center-Margin Paradox

د. محمد الأمين معطى الله [1]

[1] جامعة أحمد بن بلة، وهران – الجزائر، aminmaatalla191@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/08/23 تاريخ القبول: 2025/11/28 تاريخ النشر: 2025/12/11

ملخص:

يعوِّلُ النقد الثقافيّ على تشريح حزمةٍ من الأنساقِ الخطابيَّة المضمرةِ التي تصنعها كرة القدم كونها الرياضة الأكثر شعبيَّة في العالم، ولعلَّ من مآلاتِ النصر والهزيمة باعتبارها ثنائيَّة حتميَّة في المنافسةِ أن تستحيلَ إلى مفارقةٍ حصيفةٍ تحدِّدُ ماهيةَ المنتصر والمهزوم على السَّواء، فتبعًا لهذهِ المعادلةِ يتشظَّى الخطابِ السُّلطويّ بأدواتهِ الإعلاميَّةِ وأيقوناتهِ السرديَّة والذي يتكفَّلُ بتوثيق مخرجاتِ الواقعةِ الرياضيَّة إلى صوتينِ متنابذينِ الأول يحيل إلى المتنِ والثانيّ يومئ إلى الهامش، ووفقَ هذا المرانِ يتبدَّى التفاضلُ الفيزيولوجيّ والثقافيّ والسلوكيّ في ذروةِ تشكُّلاتهِ والمرهونِ أساسًا بمخرجاتِ اللِّقاءِ، وآفاق الصِّراع، وعليهِ تهفو دراستنا إلى استنطاق هذه المفارقات وتشخيصِ طابِعها النقديّ والثقافيّ واللُّغويّ.

الكلماتِ المفتاحيَّة: *المفارقة؛ النَّقد الثقافي؛ المتن والهامش؛ ثنائية النصر والهزيمة؛ الخطاب السُّلطويّ؛ كرة القدم؛ المصارعة.*

Abstract:

Cultural criticism depends on analyzing the set of implicit discursive frameworks that football creates, as it is the world's most popular sport. Among the results of victory and defeat, which are viewed as a necessary duality in competition, is their transformation into a calculated paradox that defines the core of both the winner and the loser. According to this view, authoritarian discourse fragments through its media tools and narrative symbols, which turn the outcomes of the sporting event into two opposing voices: one representing the center and the other pointing toward the margin. Through this process, physiological, cultural, and behavioral differences become apparent at the peak of their development, mainly depending on the outcomes of the encounter and the horizons of conflict. Accordingly, our study aims to examine these paradoxes and analyze their critical, cultural, and linguistic aspects.

المؤلف المراسل: محمد الأمين معطى الله.

Keywords: *Paradox; cultural criticism; center and margin; victory and defeat duality; authoritarian discourse; football; wrestling.*

مقدمة:

لا ضيرَ في أن يغتدي المستطيلُ الأخضر مساحةً تنافسية تُستفرغُ فيها كلُّ أشكالِ الصِّراعاتِ الإيدلوجية والسياسية والعرقية، ذلكَ أنّ المدة الزمنية الحاضنة لتلك التنافسيَّة والمقدَّرة بساعة ونصف دون حسابِ الوقتِ المستقطعِ، قد تؤولُ في سجلاتِ التاريخِ إلى أعيادٍ وطنية تخلِّدها الذاكرة الجمعية، خاصة تلكَ التي تندَّرت فيها الإنجازات بمختلفِ تلاوينِها، فتلتجأ طواعيةً إلى كرةِ القدمِ لإشباعِ نهمها الحضاريِّ وإرواءِ ظمئِها التاريخيِّ، ولو على نحوٍ رمزيٍّ، وهكذا انتقلت كرة القدمِ إلى خطاب مرئيٍّ يتسلَّطُ بقوةِ الغريزةِ التفوقيَّةِ على وجدانِ الجماهير وقلوبِ العَامةِ.

وما يذكيِّ قداسة تلك المعركةِ على بساطتِها وجود خصمينِ من عالمينِ متباينينِ، تؤطِّرهما فواصلٌ من المدخراتِ القوميَّة والدِّينية فتتَّسِعَ بؤرة الخلافِ، وتحتدمَ التنافسيَّة تحتَ أنظارِ الجماهير التي تُبدي كلَّ طقوسِ العباداتِ الممكنةِ ارتضاءَ أن تكفلَ دعوة ارتقت إلى السَّماء حسمَ النصر لمنتخَبِها القوميِّ أو فريقِها المحبَّب

1. كرة القدم بين مضمراتِ الهامش ومكيدة المتنِ:

دأب النقد الثقافيِّ على تحديثِ المرجعيةِ النقدية وخواصِها التحليلية عبر توسيع المدِّ التصوريِّ للنصوصِ ومحاولةِ استبصار تلك الشحناتِ الخفيَّة التي تستنهضُ على تقعيد النّص وفقَ أوتادٍ ضاغطة تديرُ منحاه الإجرائيِّ وغاياتِه الإيديولوجية والفلسفيَّة، وبرزَ النقد الهامشيِّ كأطروحةٍ جريئةٍ في تلاوين المشهد الأدبي الحداثيِّ مع المفكر الفرنسيِّ "ليوتار" فهوَ يعدُّ السِّلاح الثقافيِّ الوحيد لكسر سطوةِ امتلاك الحقيقةِ من طرفِ واحِد"[1]ودكِّ حصون الأنساق السُّلطويَّة بمؤسَّساتِها المهيمنَةِ على مُجرياتِ الحياةِ.

وليسَ بدعًا أن يُشايعَ النقد الثقافيِّ كل الممارساتِ الحركية الحرَّة والسلوكياتِ الرياضية والفنية، ذلك أن وراءَ كلِّ فعلٍ ديمومةٌ من الرسائلِ الثقافية التي تُحيلَ إلى نمط فكريٍّ، ما يُهيكل بنائية تلكَ الحركياتِ وهندسِتها التي تشغُل دلالةً كبرى في الفضاء المتاح، وكرة القدم باعتبارها السَّنن الثقافي الأكثر تداولًا في العالم هيَ من

مقتضياتِ الدراسة الثقافيَّة التي تسعَى إلى تشريح مخلَّفات المباراياتِ الأكثر سخونةً سواءً الأيقونات السيميائية، الخطابات الإعلامية، المشاحنات الكلامية بين المنابر الإعلامية ، الكتابات الحائطيَّة، التيفوهات الجماهيريَّة برسائلها المشفَّرة .

كلُّها خطابات مرئيَّة تندسُّ بين تلابيبها أنماطًا من الثقافاتِ التي تعكسُ حجم الهوسِ والانفعالِ بلقاء كرويٍّ دون غيرهِ، بمعنى أنَّ هنالك تفاصيلَ بعينهَا تصنعُ الإثارة وتزجيِّ المقابلة في هيئةِ خطابٍ تنابذيٍّ محتدم بالأنساقِ المتضادة.

علاوة على هذَا يوشك أن تغتديَ ثنائية المتنِ والهامشِ إحدَى أثقلِ المضمراتِ الثقافية الرابضة في متاهاتِ الرياضةِ الأكثر شعبيةٍ بالعالم، بحيثُ ينتقل العداء التي فرضته المؤسَّسات السِّياسية والاقتصادية المهيمنة، والتَّقسيم العنصري بين غرب متحضر وشرق رجعيٍّ، بين عالم رائد وآخر متحدِّر يسير في فلك التخلُّف، إلى مضمارٍ للتنافس طيلة التِّسعين الدقيقة بغيةَ الثَّأرِ من تلكَ التصنيفاتِ الجائرةِ، واستحداثِ سلاح فعَّال يلوذ بهِ المهمشون، يتمثَّل في تسجيلِ مقدار كبير من الأهدافِ في مرمى المتأسِّد سياسيا وحضاريا واقتصاديًّا حتى يتمَّ خلخلةُ صورتهِ المثالية بين الجماهير.

ولو أردنا العودة إلى مجالات الإضمار الثقافيِّ كطقسٍ نقديٍّ جسور يفضِّلهُ المخاطبُ عادة لانتقاء المسالك الوافيةِ التي عبرها يهيمنُ على الآخر لوجدنَا الكثير من التنوعاتِ في هذا المجال:

أ- الإضمار التأليفيِّ: وهي حالة فريدة تتغيَّا إخفاء الكتاب عمدًا ترويجًا لبضاعةٍ يُغلبُ عليها الابتذال وما يقابل ذلك: نموذج ألف ليلةٍ وليلةٍ باعتباره محض كتابٍ خُصِّص للمتعةِ الحسيَّة الساذجة، "ولهذا كانَ لزامًا مواراة مؤلفيهِ لأنَّ مدلوله الأخلاقي الخفيض لا يشرِّفُهم فترفعوا عن ذكر الأسماء واكتفوا بحسنةِ المتعةِ"[2].

ب- الإضمار الرمزيِّ: وهو إيداعُ بنية نقدية متوترة في مرصوفة تعبيريَّة غاصَّة بالرموز التي تحيل إلى فجواتٍ ثقافية بين الرجل والمرأة في مسألةِ قرض الشِّعر، ونعقدُ لهذه التمثيليَّة إجابة الفرزدق حين سئل عن خفوت الصوت النسائيِّ في إنشاء القصائد وإنشادها فقال متهكِّمًا: "كنا إذا

صَاحَت الدَّجاجة صياح الدِّيك ذبحناها"[3]، وصورة الأمر أنَّ الفرزدق أبرق لنا عبر هذه الرمزيَّة أحادية الصَّوت الشعريِّ المسيَّج بنبرة ذكورية صرفةٍ ولو تجاوزت المرأة هذه التُّخوم الفاصلةِ وعزمَت على منافسةِ الرجال كان مصيرها العسفُ والإقصاء.

ت- الإضمار الإيديولوجيِّ: إنها شبكة من السَّرديات المستترة بردَاء الرَّمز يعضد بها الكاتب اتِّقاء مجانبةِ القراءات المصادمةِ لإيديولوجيتهِ خاصة إذا اشتَبكَت مع المقدَّس الدينيِّ، ولعل من عبَّد الطريق لهذا النهجِ هو الأديب الأمريكيِّ جون شتاينبك في روايتهِ شرق عدنِ التي نُشرت سنة 1952 أين عالجت مسألة الشِّقاق العائليِّ والخصام الأزليِّ بين الخير والشر بالاتكاء على رمزية قصة آدم وحواء وخروجهما من الجنة وما تلاهُ من حوادث مفجعة كمقتل هابيل على يدِ أخيه قابيل"[4].

ولئن عاجل النقد الثقافي بإحكامِ مجالهِ على هذا الفضاء الكرويِّ الممغنط بالصراعاتِ والمناكفاتِ إلا أنَّهُ في نفسِ الوقتِ يبقى على أهبةٍ من الاستعدادِ للزحفِ على تلك المؤسسةِ الراعية لهذهِ الثقافةِ المتكلسةِ التي لا تنفكُّ في نشرِ لحنٍ دعائيٍّ مثير للجماهير حتى تستكينَ لهُ وتتناسَى واقعها المكفهرِّ بالآفاتِ الاقتصادية والنكوص الاجتماعيِّة والتدهور الأخلاقيِّ، وكأنَّ المؤسَّسة الرَّاعية لهذهِ المباريات هي التي "تسبغ على الثقافةِ صيَغًا ثقافية نمطيَّة، وتصطنِعُ فيها ثقافةً هزيلةً وتشيعُ ضروبًا من الإنتاجِ الثقافيِّ الدِّعائيِّ الذي يسهمُ في إذايةِ فاعليَّةِ الأسئلةِ وحجرِ المزعجِ منها"[5].

وبالعودةِ إلى مقولةِ الفيلسوف الفرنسيِّ جون بول سارتر "كرة القدم هي مجاز عن الحياةِ"[6]يتبدَّى لنَا الجوهر الرئيس لهذهِ الرياضة، وهي ابتلاعُ كل المشاهد الصِّدامية والاختلافات الثقافيَّة والمتعارضات الدينية التي أخفقت المتون العلمية والسجلاتِ التاريخية في احتوائها والكشفِ عن ملابساتِها، وبعدئذٍ يتم تجشؤ ما تم ابتلاعه في حدثٍ عبثيٍّ، محلُّ الهيمنةِ فيهِ أرجلٌ تطاردُ جلدًا منفوخًا ينطُّ هنا وهناكَ.

وبعيدًا عن تلك الهيستيريا التي تشوبُ أطوارُ المباراة، فإنَّ حدث المجاز يُراد بهِ هنا المجاوز التَّمثيليَّة لدورةِ الحياةِ بمنعرجاتها ونتوءاتِها، فعلى سبيلِ التَّجاوزِ وتحطيمِ الدِّعاياتِ السِّياسية والمكابرةِ في تسويقِ أماراتِ النصر،

نجح الإيرانيون في هزمِ عدوهم اللَّدود الولايات المتحدة الأمريكية في المونديالِ الفرنسيِّ سنة 1998، وقتها أدركت الحكومة الإيرانيَّة أنها على مشارفِ تحقيقِ مكسبٍ تاريخيٍّ لا نظيرَ لهُ وهي تُسقِط عدوها اللَّدود ، لدرجة أنَّ التلفزيون الإيرانيِّ صنف الحدث في خانةِ المعركةِ التي قوَّضت أحلام المعارضينِ والمناوئين لسياسَة الجهورية الإسلاميَّة.

وبالتالي أفرَزت لنا نتيجة المباراة ميلاد نسقَ تمرديٍّ وانبثاق صوت مهمَّش مقموع حوصرَ سياسيّا واقتصاديا وعسكريًّا ومع ذلكَ اقتدرَ على مُغالبة المتن المتمثِّل في الهيمنةِ الأمريكيَّة، ولولا تلك الدقائقُ التي أتحاها كرة القدمِ ما التقَى المتخاصمان، رغم أنَّ الشعب الأمريكيِّ آنذاك لم يكن على درجةٍ كبيرةٍ من الاحتقانِ كون العروس الأولى التي خطفت ألبابه هي رياضة الريغبي، فالبيسبول فكرةُ السَّلَّة، أما كرة القدم فهي فتيَّة ولم تكُن على درجةٍ كبيرةٍ من الشُّهرةِ في بلد العمِّ سام.

وعدا ذلكَ فإنَّ الخطاب الإبداعيِّ وجبَ أن يلتزم بمجموعةٍ من المنبهات البلاغية والمهيئاتِ الأسلوبية حتَّى يغتدي دائخًا للقارئ بحدِّ "وسمِ رولانِ بارت وكلمة دائخ هي اشتقاقٌ إلى السّكر المفرطِ للعنبِ، بحيثُ يستميتُ النصُّ المنقوعِ في سكرِ الإغوائية"[7]، باسترعاءِ الأسماعِ وجذبِ الألبابِ وإمتاعِ الأبصارِ لغاية أن يقع المتلقيِّ في هوى النصِّ.

أما الذي يستأهل اِجتلاب عيون الجماهير في قانونِ كرةِ القدم فهي الأهداف المنسابة في الشِّباك بطريقةٍ إبداعية سلسة، فالهدف أو الجول هو ذروةُ المتعة في كرةِ القدمِ والذي يأذنُ للجماهير بأن تصدح بحناجرها عطفًا على جمالية المنظر وبذاختِهِ، وهو الذي يفرضُ على المخرج إعادته وتكريره للجماهير في الشَّاشاتِ الكبرى حتى يتأتى لَها معاينة تلكَ الخطوطِ والانحناءات التي سلكتها الكرةُ قبل أن تلجَ الشّباك.

وقد اِستطاعَت كرة الأقدام بفضلِ نظامِ المنافسةِ العادل، أن تمنحَ الزنوجَ فرصةً للتفوُّق وإثباتِ الذاتِ وتكسير القيودِ التي اصطنعها البيض الأوربيُّون، ففي سنة 1916 شكل المنتخبُ الأروغواني فريقًا رهيبًا يضمُّ كلا من اللاعبين" غرادين وهو حفيد عبيد زنوجٍ تم جلبُ أجدادهِ بقوة نظام السخرةِ من القارةِ الإفريقيَّةِ ، وكذا خوان ديغالدو وهو أيضا حفيد زنوجٍ عبيد ترعرع في مزارعٍ يملكها الآباء البيض، والمفارقة أنهما هزمَا

لوحديِّهما المنتخب الشيلي برباعية نظيفة، هذا الأخير استثقل الهزيمة التاريخيَّة فطلب من الهيئةِ الراعيةِ للمنافسةِ إلغاء النتيجةِ كون المنتخبِ يضمُ في صفوفهِ لاعبينِ زنجيينِ من أصولٍ إفريقيَّةٍ"[8].

لقد أسدت كرة القدمِ للأفارقة السُّود خدمةً جليلة بحيثُ نصبتهم ملوكًا على تلكَ اللعبةِ وهذا نظيرَ السِّحر الذي أطبقوه على المنافسةِ، فهم يجيدون المراوغَات الرشيقةِ التي تُخولهم التلاعبَ بالخصومِ وإرباكهم. علاوةً على قدرتِهم البدنية الرَّهيبةِ، هكذا تعبأ المهمشونَ السُّودُ بمضخاتٍ إضافيةٍ من الموثوقية التامةِ التي أرغمتهم على تخطيِّ الأغلالِ الوهميةِ التي أسكنَها الأوربيون في عقولِهم طيلة عقودٍ من الزَّمن.

ولا مندوحة إن سيطرت الكرةُ البرازيلية على المشهدِ الكرويِّ فهيَ تمتلك أقدامًا تجيدُ مراقصةَ الكرةِ وترويضِها كما يروِّض الإفريقيِّ السِّباع والأسود "فالبرازيليون يلعبون كرة القدم كأنهم يرقصون وقد يعودُ ذلك إلى أنَّ البرازيليِّين ينحدرون من أصولٍ إفريقيَّة أو تأثروا بالثقافةِ الإفريقيَّة، فالنسبة إليهم الرقصُ هو الحياةُ بكلِّ ما فيهَا"[9].

كمَا استذكرَ العربُ مناقِب عنترة في الجسارةِ والشهامةِ حينَ اشتدَّت بهم ساحاتُ الوغى، صار الأوربيون بدورهِم يتوقون التخليِّ عن عقيدةِ الأجدادِ وحثِّ الأفارقةِ على الانضمامِ لفرقهم عسَى أن يضمنوا لهم النصر تلوَى النَّصر:

سَيَذكُرُني قَومي إذا الخَيلُ أَقبَلَت وَفي اللَيلَةِ الظَلماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ

يَعيبونَ لَوني بِالسَوادِ جَهالَةً وَلَولا سَوادُ اللَيلِ ما طَلَعَ الفَجرُ

وَإِن كانَ لَوني أَسوَداً فَخَصائِلي بَياضٌ وَمِن كَفَّيَّ يُستَنزَلُ القَطرُ[10]

وأيًّا ما يكن الشَّأن فقد ترافقَ الخطابُ الشِّعريِّ باستعاراتِهِ الباثةِ على التحدِّي والخروج من وضعية اجتماعية ثابتةٍ بمخرجاتٍ كرةِ القدم ومنازلاتِها التي شغف بها العالم حبًّا، فهي الأنسبُ لتقويضِ الأنساق المعرفية المتعاليةِ، وإرباك السَّنن المتداول بمفارقةِ التجاوزِ وذمِّ الاستعطافِ المتحدِّر من فكرةِ قصورِ العبد الزنجيِّ عن مجاراةِ الرَّجلِ الأبيضِ.

2- كرة القدم كامتدادٍ لأقدم رياضةٍ بالتاريخ، "المُصارعة":

ومما هو جدير بالذكر في هذا المساق أنَّ كرة القدم هي بؤرة من المناكفاتِ التي تحضر فيها كل أنواع المراهناتِ، ولكن بوسائط إعلاميَّة تحاولُ تمويه الرأي العام بأنَّ هذه الرياضة هي موئل الفقراء، والإبرةُ الوحيدةُ التي تنسجُ أحلامهم بيدَ أنها مجرد امتدادٍ لسلوكِ أباطرةِ الرُّومِ حيثُ يتعمدون حشو شعوبهم ضمن حلباتٍ دائريَّة يُدارُ فيها صراع بين فارسينِ مدجَّجينِ بمختلفِ الأسلحةِ والدروع الحديديَّة ثم يختتمُ النزال على وقع الأهازيجِ والصَّخبِ الجماهيريِّ مع أنَّ النتيجة عادة ما تنتهيِّ بمقتلِ أحد الخصمينِ "فالمصارعة بتفسير رولان بارت تشتغلُ حدَّ ما في دلالتها من المغالاة"[11]، إذ تخبو فيها الرأفة بسعيِّ المصارعِ نحو طرح خصمهِ إشبَاعًا لعيونِ المتفرِّجينِ، وهذا ما يلقِّنه عادة المدربِ في كرة القدمِ فهو لا يتوانى في سنِّ خطابٍ على صيغةِ أباطرة الروم فيطلبُ من لاعبيهِ مواصلة المعركةِ والدِّفاع بشراسةِ عن المرمى، وفاء لتلك الجماهير التي أتَت لمناصرتهم، كالخطابِ الناريِّ الذي أبلغه المدرب الفرنسيِّ هنري رونارد بين شوطي المباراة الجاريةِ آنذاك بين المنتخبِ السعوديِّ والمنتخب الأرجنتيني بقيادة السَّاحر الزئبقيِّ ميسيِّ برسم الدور الأول من المونديال القطريِّ، لقد حثَّ الثعلبُ لاعبيهِ على التثبُّت في مواقعهم وتطبيق التعليماتِ التكتيكيَّة دونَ الاضطرابِ أو الوجل وهم يشاهدون توغلاتِ ميسيِّ في داخل منطقةِ العمليَّاتِ: **ماذا نفعل هنا؟ سالم ماذا يحدث؟ هل هذا الضغط؟ الضغط لا يعني أن تخاف، ميسي في منتصف الملعب يحصل على الكرة وأنت تقف فقط وتنظر له، اذهبوا اركضُوا وأغلقوا المساحات أمامه، ألم تشعُروا بقدرتكم على التعادل؟ مرتاحين، هيا يا شباب هذا كأس العالم أعطوا كل شيء لديكم"**[12].

فلو جرَّدنا الخطاب من قائلهِ وعزفنا عن ذكر تسميَّات اللاعبين ونوع المنافسة لخال السَّامع بأن الموقعة هي فصول منَ الصِّراع الأزليِّ بين الإغريقيين والطرواديينِ خلال معركة طروادة، ولكأنَّه بذلك يُجاريِّ حماسةِ الملك أجَامِمْنُون وهو يؤجِّج نار الثأر في جنودهِ البحارة لاستعادةِ هيلين زوجة الملكِ مينيلاوس التي خانت الخُلة وهربت إلى طروادة مع باريس.

والملاحون دائبون ما يَنُون، مرسلين في اللانهاية ألحانهم، مرددةً الرياح أغانيهم وأنغامهم؛ والقادة ملتفون حول القائد الأعلى — حول أجامنون — يدرسون تلك الخطة وينقدون هذه الفكرة، ويدبِّرون من أمرهم ما يصلُ بهم إلى نصر عزيز"[13].

وتأسيًّا بما سبق تفطن رولان بارت إلى حديَّة الخطابِ في تكوينِ الرُّخص الأخلاقيَّة التي تسوِّغُ للحشدِ مقولة: "اجعلهُ يتألم، اجعلهُ يدفعُ الثَّمن، وهذا في سبيل تحقيق عدالة محايثة تستتبعُ قوانين اللعبةِ"[14] وفق تنويعاتٍ مجازيَّة يتولاها الممرِّن على القتال أو الصراع ويتم تشخيص هذه العلاقية في إطار الثنائيَّة الخطابية بينَ المدرب الفرنسيِّ هيرفي رونارد وملك أسبرطة أجامنون.

إن ما يوطِّدُ الموافقات بين المصارعة وكرة القدم، هو انقلابِ الجمهورِ وسخطهِ على المتباريِّ ولو شايعهُ في بدايةِ الأمر وهذا إذا ألفى فيهِ ميولا نحو الغشِّ والتَّدليسِ بما في ذلك شراء ذمَّة الحكمِ والتأثير على قراراتهِ، فلو لجأ المخادعُ وراء الحبال متذرِّعًا باطلا عن طريقِ محاكاةٍ وقحةٍ بأن من حقِّه القيام بذلك"[15] فإنه يعادُ القبض عليهِ بلا رحمة ويبتهج الحشدُ في أن يرى القاعدة تُكسر في سبيلِ عقوبةٍ مستحقَّة.

وبنفسِ المأخذِ من الشَّتيمةِ راحت الجماهير الجزائريَّة تعلنُ العِداءَ والكراهية لرئيس الاتحاديَّة الكاميرونية صامويل إيتو رغم أنها كانت العاشقة لعروضهِ التي كان ينثرها بالملاعب الأوروبية أيام كان لاعبًا في صفوفِ برشلونة الإسبانيِّ، ويعود هذا المنقلبِ إلى تورط الغزال الأسمر في رشوة الحكمِ الغامبيِّ باكرا غاساما في مباراة العودة الحاسمة للتأهل إلى المونديال القطريِّ، انجرفَ إيتو إلى هذهِ الخطة الأثيمةِ لأنه يعلم يقينًا أن حظوظ منتخبه قد تقلصت، نتيجة خسارتهِ فوق أرضية ميدانهِ بهدفٍ مقابل صفر في مباراة الذَّهاب.

ولا مندوحة أن تستملح الجماهيرُ البدائيَّة المصارعة فهي باعتقادها "ضربٌ من الجمالِ الأخلاقيِّ، فما يجدون فيها من المتعةِ يوازي مَا يجدونه في مقطعٍ قصصيٍّ شائق"[16]، ولذلك تحرص الجماهير العربيَّة على انتقاء المعلقين المهرة في مشاهداتها للمبارياتِ الكروية الكبرى، ومردُّ هذا الانتقاء هو إيمانها بأنَّ كرة القدم قصَّة ملحميَّة تُروى في تسعين دقيقة، لكنَّها تتطلبُ راوٍ مبدع يجيد إمتاع المجلسِ بطريقةِ إلقائهِ، وهذا ما

عهدتهُ في المعلَّق الجزائريِّ حفيظ دراجيِّ، وقتَ اللقاءات الكلاسيكيَّة النديَّة بين ريال مدريد وبرشلونة، ولنتمعَّن هذه الومضة القصصيَّة التي نثرهَا المعلق وأثارت إعجاب الجماهير:

ليو، ليو، ليو، قول، قول، أنت ساحر وبارع يا ليو، استلم، مرَّر، توغل، راوغ، سدَّد، سجل.

هكذا تستحضر في القصة كل الأدوات التعبيرية المؤثرة التي سوَّلت لها الهيمنة على الجماهير:

الراوي: المعلق حفيظ دراجيِّ بحنجرته الذهبيَّة.

البطل: ميسي بتوغلاته التي أرهقت الدفاع المدريديِّ.

المكان: ملعب سانتياغو بيرنابيو بمدريد.

الحبكة: تناسق الأحداث وتواليها بناء على تعامل ميسي مع الكرة: استلام، توغل، مراوغة، تسديد، فتسجيلُ هدفٍ حاسم.

3. كرة القدم وهيمنة الخطاب، انفجارُ الأسئلةِ وتخطيِّ الأنساقِ:

في خضمِّ السُّعار الجنونيِّ بكرةِ القدم والهوس الجماهيريِّ بمعزوفاتِها الأسبوعيَّة، عزمَ الأديبُ الأرجنتينيِّ لويس بورخيسِ على مُطارحةِ السؤال الآتيِّ: ما الذي يجعلُ الجماهيرُ تتزهدُ عن حضورِ الندواتِ التي يَعقِدها الكتَّاب والمثقَّفون بينما ترتضيِّ مجابهة الأخطار والتدافعِ لشراء تذكرةٍ من أجل الحضورِ لمباراةِ كرةِ قدم؟

لعل السِّياق الذي التحد إليه الأديب الأرجنتيني لصوغِ هذا السُّؤال المجلجلِ بالرعبِّ هو خلوُّ المدرجِ من الحاضرينِ الذينَ انتظرهم الأديب بفارغِ الصبر لإلقاءِ على مسامعهم محاضرة حول فنياتِ الكتابة الأدبيَّة؟ "ومن سوء حظِّ الأديب أنَّ المحاضرة تصادفَت مع النهائيِّ المصيريِّ للمنتخب الأرجنتيني ضدَّ الطواحينِ الهوائية المنتخب الهولندي على ملعبِ مونيومنتال بالعاصمةِ الأرجنتينية بيونس آيرس سنة 1978" [17].

صارَ اللقاء الكرويِّ بدلالةِ المنطوقِ الأدبيِّ والفلسفيِّ عقارا أفيونيًّا يلبِسُ الجماهير حالةً من الهذيانِ ولكأنها تشعر أنها تحلِّق في فراديسَ النشوةِ الأبديَّة، هكذا استطاعَت الكرةُ المستديرةُ هدمَ كلِّ أشكال المتعِ المتاحةِ حتى الشعرُ والروايةُ، والسينما، والمسرح، وهذا لعلَّةٍ مفادها أنَّ كرة القدم تتقمَّص كل تلك الفنون خلالِ ساعةِ ونصف فقط.

والدليل الذي يساوقُ المسألة أن جلَّ المقابساتُ الوافدة إلى عالم كرةِ القدمِ هي مستنسخة من عالم الفن والأدب والفلسفةِ: فأطلقت الصَّحافة لقب المعلم الأول على المدرب البرتغالي جوزيه مورينو نظيرَ دهائهِ التكتيكيِّ، ووسمت اللاعب الإسبانيِّ أنيستا بالرَّسام تدليلا على التُّحفِ الجماليَّةِ التي يصنعها بوسطِ الميدانِ، وكنَّت اللاعب الألماني مسعود أوزيل بعازف الليلِ نتيجةَ العروضِ الإمتاعية التي يؤنِسُ بها الجماهير الغفيرةِ كقائدِ جوقٍ موسيقي في قاعةِ الأوبيرا.

لا شك أنَّ كرة القدم تمتاز بخواصِ الهيمنة والسُّلطةِ كأنساق لابثةٍ في كنهِهَا، حيثُ نعثرُ على الكثير من القصصِ الغرائبيَّة التي تتحدَّث عن أناسٍ مهوسينِ بحمَّى كرةِ القدم طلَّقوا وظائفهم وفكَّكوا أسرهم، وأجَّلوا مواعيد زفافِهم فقط للحاقِ بمباراةِ كرةِ القدم، أو السَّفر لحضور كأسٍ قاريةٍ أو عالمية يُشارك فيها منتخبهُم القوميِّ.

ولا مناصة إن قدَّم الإنسانُ هذهِ التنازلاتُ في سبيلِ إشباعِ فضولهِ، ذلكَ أن كرة القدم قدَّمت لهُ فرصةَ الانتماءِ لكيانٍ معين، والإنسانُ بطبعهِ توحشهُ الوحدةُ وتُرعبهُ العزلة، بينما يشعرُ بالطمأنينةِ طورًا والفخر طورًا آخر كلَّما انضمَّ إلى نادٍ يُشجعهُ ويرتدي أقمصتهُ ويدعِّمهُ في المدرجاتِ، فيتقوَّى بفوزهِ وينكسرُ لخسارته. وتخبرنا سرديَّة الأديبُ الأرغوانيِّ باكو إسبينولا عن ضعفُ الإنسانِ أمام كرةِ القدمِ فهيَ تغذيِّ فيه كل العواطفَ المكبوتةِ في باطنهِ السَّحيق، أي أنَّها أشبه بالمنديلِ التي يفضحُ دموعهُ المتواريةِ خلف نظَّارتهِ السَّميكةِ وإن أبى.

فلم يكن الأديب باكو إسبينولا على عشقٍ بكرةِ القدم، ولم يبدِ ارتباطه البتَّة بها، مع ذلك في إحدى أمسياتهِ الرتيبةِ الخاليةِ من الارتباطاتِ، "شغَّلَ مذياعهُ فالتقطَ بالصدفةِ مباراة الكلاسيكو المحلي وفيها خسر بينارول أمام غريمهِ ناسيونال برباعيةِ نظيفةٍ"[18].

لم يأبه الأديب الأرغواني في البدايةِ للأمر، بيد أنه بعيدَ برهةٍ من الزمن اعتملهُ الحزن الشديد، فشاء أن يتناولَ عشاءهُ وحدهُ دون العائلةِ خشيةَ أن ينقلَ لها عداوةَ الكآبةِ، وكان باكو متيقنًا أن عداوتهُ لم تكن بسببِ إفراطهِ في التفكير، ولا بكونهِ أديبًا مرموقًا يحاول الحفاظَ على ريادتهِ، بل لأنَّ فريقهُ بينارول خسر في

هذهِ الأمسيةِ، لقد أدركَ أنه يُشجعُ بينارول دونَ أن يدري لأنَّ قلبهُ اغتاظ للخسارةِ وأرغمَ الجوارحَ أن تنتكسَ كلَّها لأن الليلةَ بحق مشؤومة.

خسر باكو المعركتينِ، معركةُ الإباءِ والأنفةِ التي حاولَ التظاهرَ بها كمثقَّفٍ لا ينفك في السُّخريةِ من المهوسينِ بكرةِ القدم وتجاهلِ قوانينِها العبثيَّة إلى أن فضح الحزنُ عشقهُ للكرةِ المستديرةِ، ومعركة الكرامةِ لأن فريقه المفضل الذي حاول القلبُ طمر عشقهِ والهوسَ به أيِّ ناديٍّ بينارول قد خسر برباعيةٍ أمام غريمهِ ناسيونال.

أما الشَّاعر الفلسطينيِّ محود درويش فكانت مشاعرهُ ميَّالَة نحوَ التَّعاطي الجمالي مع مسرحياتِ السَّاحر الأرجنتينيِّ القصير مارادونَا وما يصنعه في المونديال المكسيكيِّ سنة1986، فكانت قدمهُ الذهبيَّة التي دكَّ بها حصون الألمان ويده المقدَّسة التي ساهمت إقصاءِ الإنكليزِ وقودًا شاعريًّا ومعوانًا صوراتيًّا أمدَّت الشاعر الفلسطينيِّ بشغف الكتابةِ من جديد، شغفٌ أنساهُ حطام الذاكرةِ وفواجع بيروت المحاصرةِ وهيَ تنامَ على الظلامِ:

-يفلِتُ كالصَّوت

له وجه طفلٍ، وجه ملاك،

له جسدُ الكرة،

له قلبُ أسد،

له قدمَا غزال عملاق،

وله هتافنا: مارادونا.. مارادونا، فنتصبب اسمه عرقاً. ويقتلع الكرة كالقطة البلدية الماهرة، من أرجل البغل. يراوغ كالثعلب المزوّد بقوة ثور، ويقفز كالفهد على حارس المرمى الضَّخم المتحوّل إلى أرنب: وجوول"[19]!

لا يفتأ محمود درويشِ في استدعاء كل استعاراتهِ المتاحة على أملِ تطويقِ المشهدِ الدراميِّ واللحظةِ الرومانسيَّة التي تهافت العالم لالتقاطِ شذراتِها الماثلةِ في مخيالهِ، لحظةُ خطفِ ماردونا للكرةِ ثمَّ توغلهِ في دفاعاتِ الخصومِ كفارسٍ ملثَّمٍ يسوقُ رمحهُ وسطَ الخصوم غير عابثٍ بالموتِ، لقد عثَرَ محمود درويش أخيرًا على لوحةً شاعرية تكشِفُ عن لقاءِ العاشقِ بمعشوقتِهِ دونَما أن يهزَّهما الفراق، أو يكتويَا بجمرةِ الحرمانِ كما حدثَ مع قيس بن الملوح وهو يقتصُّ خطى حبيبتهِ ليلى العامرية دون أن يطبق على طيفِها، بخلافِ ماردونَا الذي أخضع حبيبتهُ المستديرةِ لهواه فراقَصها تارةً وحرضَّها تارةً أخرى لتهينَ منافسيهِ بل أبلغها أيضا بالزاويةِ التي ينبغي عليها أن تسكنها دونَ أن يلتقطها حراسُ المرمَى لأنها ملكٌ له ولن يأخذها غيرهِ!

وحينَ اطلاعِ الأديب المصري توفيق الحكيم على منشورٍ صحفيٍّ يكشِفُ عن المبلغ الذي يتقاضاهُ لاعب كرةِ القدَمِ شهريًّا انتابته دوامةٌ من اليأسِ، فقالَ والسُّخطُ قد أطبقَ على محياهُ: "**لقد أخذ هذا اللاعب في سنةٍ واحدةٍ، مالم يأخذهُ كل أدباء مصر من أيام أخناتون، انتهى عصرُ القلم وبدأ عصرُ كرةِ القدم**"[20].

من مراتبِ الهزيمةِ هو أن تئنَّ ندمًا على شيءٍ عبثيٍّ لا يحتاجُ إلى إعمالِ عقلٍ أو تصحيحِ أسطرٍ أو إنهاك عقلٍ أو تحريضِ وعيٍّ على التدبُّر في المعاجمِ الضّخام، عسى أن تتصيدَ كلمةً تزيِّن حواشي القصيدة، بل يتطلبُ تحريكَ القدمينِ يمنةً ويسرةً وتبعًا لاتجاهِ الكرةِ، فمجرد إبداءِ هذهِ التعليماتِ داخلَ المستطيلِ الأخضرِ ستفردُ لكَ الصِّحافة مساحة واسعة من الاهتمامِ وتمنحك البنوك من وافرِ نعمتها وستكسبُ أيضا شعبية جارفة تناطحُ شعبيةَ الرئيس في الجمهوريات التقليديَّة.

فما لهجَ بهِ توفيقِ الحكيم لا يعدو أن يكون سوى غيضٍ من فيضِ ذلكَ أن الخطاب الدعائيِّ لكرة القدم لم يعد يهتم بجمعِ الأموال الكثيرةِ الناجمة عن العقود الضخمة التي تعقدها الأندية العالمية مع الشركاتِ الاقتصادية الكبرى، بل أضحى أيضًا خطابًا يمورُ بالقداسةِ الدينيَّة والتأجُّج العقائديِّ حيثُ نرمقُ في كل

تظاهرةٍ كروية عالمية المصحف، والشمعدان، والصَّليب، فكلُّ مشجعٍ يحاولُ إظهارَ نوعٍ من الخضوعِ والتبتّل الدينيِّ عسى أن يسمع الربُّ دعاءهُ فيحيقَ لفريقهِ نصرًا مؤزَّرًا.

وتمتدُّ تلكَ الطقوس إلى غرفةِ تبديل الملابِسِ فيُمعن الفريقُ برمَّتِهِ في استحضارِ جملةٍ من الطقوسِ الغرائبيَّةِ التي تكفلُ لهم حسم المبارياتِ المصيرية، فالبرازيليون لا يدَّخرون جهدًا في سبيلِ جلبِ الحظِ والبركةِ قبلَ المبارياتِ فهم يغسِلون أحذيتهم بالماءِ إرواءً للقديسينَ، ثم يحملون الماءَ الملوث بعد الغسل ليرشّوه في ملعبِ الفريقِ المنافِس.

وهذا حتى تُصيب اللَّعنة الخصوم ويعجزون عنِ التهديفِ وتلك من خوارق العقل حين يقمع لواقطه المنطقية وسُكونه الآلي ويلتفت إلى الخرافة"[21]!

ونلفي الكثير من الفرق العربيَّة التي تفتقِدُ الأهلية والكفاءة الرياضية والإداريَّة ميلها إلى اجتراح الطقوس المغالية كذبحِ ديكٍ أسود وسط الملعبِ ومن ثمَّ رشِّ دمهِ في زوايا المرمى، ارتضاءَ أن يعدِّلوا مسار النتائجِ، ويطردوا النَّحسَ الذي حرمهم من الوصولِ إلى شباكِ منافسيهم!

ولا تتردَّد أندية شمال إفريقيا حين تواجه الأندية الإفريقيَّة في رشِّ الشباكِ بماءٍ طاهر لطردِ النحسِ وتبديدِ السِّحر الأسودِ الذي يضعه الأفارقة ذودًا عن مرماهم، ففي دوليّ الطوغو والبنين أسواقٌ تختصُّ ببيعِ أدواتِ السِّحر كجلدِ التمساحِ، وذيولِ القرودِ، وأنيابِ الضباعِ التي تستخدم في المبارياتِ وتعطيلِ المنافسينِ"[22].

هكذَا يتأسَّس المخيال الجمعيِّ على صياغةِ كلِّ الأنساقِ الميتافيزيقيَّة الممكنةِ وحشدِ كلِّ القصص والأساطير التي تواترت عن الأجداد في سبيلِ صناعةِ النصرِ كتجربة فريدة تُنسيهِ إخفاقاتِ الحياة، فالشُّعوبُ الأشدُّ تعلقًا بكرةِ القدم باعتبارها نسقًا هامشيًّا، هي تلكَ التي تفتقِدُ إلى الفرحِ فتستجيرَ بكرةِ القدمِ كبديلٍ يُنسيهَا نكساتِها السِّياسيةِ والحضاريَّة والاجتماعيَّةِ.

4. كرة القدم وانسِحاقِ المنهزِم، قراءةٌ في رجعيةِ الخطابِ الإعلاميّ:

كرةُ القدمِ هي ميدانٌ للمشاعرِ المتناقضةِ والعواطفِ المتضاربةِ، حيثُ المنتصرُ يغدو بطلا قوميًّا ترفع لهُ الرّاياتُ بينما المنهزمُ يُدهسُ بالكلامِ الجارحِ والنعوتِ السّاقطةِ التي تطعنُ في وطنيتِهِ وتشكُّ في ولائهِ، فيصير بمنظورِ الإعلامِ الناقمِ على الخاسرةِ خائنًا يستوجبُ تعزيرهُ أو نفيهُ أو تأديبهُ من قبلِ الجماهيرِ، والأنكى من ذلك أن تمس العقوبة لاعبًا بعينهِ دونَ الفريقِ كلِّه لأنه سجل هدفًا عكسيًّا في مرماه، أو تسبَّبَ بركلةٍ جزاءَ منح إثرها الفوز للمنافِسِ.

والشاعر قد يُدانُ من قبلِ الناقِدِ فيتمَّ محاكمتهُ تبعًا لقصائدَ رديئةً أخفق الشاعرُ في منحها عصارتهُ الجمالية وتقانتهُ البلاغية، فتطمسَ شاعريتَهُ، لأنَّ الناقدُ يحوزُ علَى هيمنةٍ ثقافيَّة وباع طويلٍ في نقدِ الشعرِ والشعراءِ، عدَا ذلكَ فإنه يستحوذُ على الدعائمِ الإعلاميةِ المواتيةِ لسلطتهِ والتي بفضلِها يستطيعُ زعزعةِ مكانةِ الشاعرِ اجتماعيًّا وثقافيًّا.

ولو أسقطنَا المسألة على مخرجاتِ الخطابِ النقديِّ الرياضيِ لرأيناهُ يتماهَى شكلًا ومضمونًا مع الخطاب النقديِّ الأدبيِّ، فسيرةُ اللاعبِ على المحكِّ إذا اقترفَ خطأً فنيًّا أو تكتيكيًّا أسهم بشكلٍ كبير في تغييرِ نتيجةِ اللقاءِ فتتقوَّض مكانةُ اللاعبِ وتنمحيِّ شهرتهُ وهذا ما جرَى مع الحارسِ البرازيليِّ بربوسَا الذي ارتكبَ هفوةً كبيرةً جعلت الكرةُ تتهادَى لمرماهُ معلنةً النَّصر للمنتخب الأرغواني وتتويجهِ نهائيا بمونديالِ 1950"[23].

صمَّمت الجماهيرُ البرازيليَّة السَّاخطةُ مِنَ الهزيمةِ النكراء على نعتِ الحارسِ بالخائنِ الذي غمسَ قفازيهِ في دماءِ العار وهذا طبعًا بالتحالفِ مع الإعلامِ المتعصِّب الذي اتخذ من الحارسِ بربوسَا كبشَ فداءٍ، وتمرُّ السنون ويعقدَ الحارسُ على مبارحةِ العزلةِ التي فرضتها عليهِ تلكَ المباراةِ المشؤومةِ ربَّما ينعمَ بالصفح، فتوجَّه بمحضِ إرادتِه لمعسكر المنتخبِ البرازيلي لمؤازرته ودعمهِ قبل التصفياتِ المؤهلةِ لمونديالِ1994 بالولايات المتحدة الأمريكية، بيد أن السلطاتِ الحكومية منعتهُ فكيفَ لخائنٍ بسوابق ماضية أن يدنس حرمةَ المنتخب القوميِّ، وقد كانَ الحارسُ آنذاكَ يقتاتُ على راتبٍ بائسٍ لا يقتدرُ على صيانةِ كرامتهِ، لم يجد الحارسُ إلا

أن يبوحَ بكلماتٍ مختصرة لخَّصت حياتهُ المهينة: **العقوبةُ القُصوى علَى أيِّ جريمةٍ بالبرازيل هي ثلاثونَ سنة، أمَّا أنا فإني أدفعُ هذَا منذُ ثلاثٍ وأربعينَ سنة عن جريمةٍ لم أقترفهَا"**[24].

فإذا كانت كلماتُ الموتَى تتحوَّل وتتبدَّل عندما يجترُّها الأحياء، فإن كلمات الأحياء بدورها تتبدَّل وتتعدَّل عندمَا تتمثل في الواقعِ المعيشِ"[25]، فمصيرُ الحارسُ افترسهُ التخمينُ الجماهيريِّ الزائِف، الحكم الشعبويِّ الجائرِ بمعاضدةِ الخطاب الإعلاميِّ الذي ينجرُّ لإثارةِ الدَّهشةِ وافتعالِ التراجيديا ولو على حسابِ دموعِ الأبرياءِ.

ولزيادةِ الاحتقانِ واللَّعبِ على أوتارِ العاطفةِ الرنَّانةِ التي تُديرُ ميولاتِ الجماهير، يعمدُ الخطابُ الإعلاميِّ إلى الاحتكاكِ بقاموسِ المعارفِ الحربيَّةِ لزيادةِ معدَّلاتِ النديَّة حيثُ تغوصُ المباراةِ في محيطٍ من الرمزيةِ المصطنعةِ التي تهدفُ إلى تغليفِ الحوار الرياضيِّ على طابعهِ المهادن بشعاراتٍ قوميَّة حتى يُخال للجماهير أن المباراةُ اليوم ترتهنُ بمصيرِ هذهِ الأمة فإمَّا النصر أو التسربلُ ببرقعِ الذلِّ للأبد، هكذا نجحَ الإعلامُ في نسجِ خطابٍ موازٍ يتَّخذُ من كرةِ القدم الشاحن الممغنطَ الذي يجتذبُ إليهِ التاريخِ والسَّياسةَ والاجتماعَ والعلوم بمختلفِ تمثلاتِها، فتصير كل تلك الشعب المعرفيَّة خدمًا لَها ويتصدَّر أقطابَ الرياضَة المشهَد ، حكام، لاعبون بدلاء، لاعبون أساسيُّون، مدربون، مسيِّرون.

ولم تتخلَّ الجماهير الايطاليّة المتعصِّبة، عن فرصة النيل من لاعبها المدلَّل **روبرتو باجيو**، لأنَّه منح اللّقب العالمي للبرازيل في مونديال 1994 بتضييعه لضربة الترجيحِ الحاسمةِ، انتقامٌ كان بنكهة لاهوتيّة صرفه، معيدًا إيطاليا إلى سطوة الإكليروس، إبَّان عصور الظلمات فقد كتب أحد المتطرفين على جدران الفاتيكان ما يلي: "يغفرُ الربُّ للجميع إلَّا باجيو"[26].

ربما كان على هذا المتعصِّب صاحب العقل الأهوج، عوض أن يمنح صكَّ الخطيئة لباجيو لمجانبةِ كرتهِ خطّ المرمى، أن يداهم حصون الأثرياء، قلاع البرجوازيين، مخادع السَّاسة الآثمين، ويهبهم أدعية الشَّقاء، ورحلات السّعير، بسبب إهلاكهم الأرض بوباء الفقر، وطاعون الحروب.

وليسَ بِدعًا أن يرتكنَ الخطابُ الدعائيِّ في المسابقاتِ الكروية العالميَّةِ إلى الامتِثالِ لقواعدِ رياضيةِ غير نزيهة، والمستجلبةِ من المتنِ بمؤسساتهِ المهيمنة، ومن ثمَّة يجنحُ لتسويغِ مسبِّباتِها بِدعوى الضروريات تبيحُ المحظوراتِ، كالعار الذي لحقَ بمنتخبيِّ ألمانيا والنمسا في مونديالِ إسبانيا سنة 1982 لما اتفقَا مسبَقًا على إنهاء المباراةِ بواقعِ هدفٍ لصفر لصالح الألمان"[27]، فتضمن ألمانيا ريادة المجموعة وتصطحبَ معها النمسا للدور الثاني بمقابلِ إقصاء الجزائرِ عنوةً من الدورِ الأول، رغم أنه كان متصدِّرا للمجموعةِ بواقعِ أربع نقطٍ قبل انطلاقِ لقاءِ ألمانيا بالنمسا.

هكذَا تحالفَ الألمان مع جيرانِهم بدعوى توافق الجغرافيا والتاريخِ والبنياتِ المورفولوجيَّةِ والثقافية، أما الجزائر المنتخبُ الإفريقيِّ الفتيِّ، حديثُ العهدِ بالاستقلالِ فليسَ لهُ حظٌّ من المجدِ الكرويِّ، بيدَ أن الأسوأ من ذلكَ كلهِ أن كرة القدم استطاعت تعريةَ الفكر الإمبريالي فهو لا يجيد إلا التشدُّق بالومضات الفلسفية والنكهاتِ البلاغية التي يُداومُ على التحاجُجِ بها في الهيئاتِ والمنظماتِ الأمميَّة فيما يخص حقوق الإنسانِ، ونبذِ أشكال العنصرية، بينما تفضَحهُ مباراة كرةِ قدمٍ في الهواء الطلقِ وعلى ميدانٍ معشوشبٍ.

5-بين خفة ميسيِّ وأناقة رونالدو، هل ثمة وصفات ثقافيَّة تهندسُ للانقسام الجماهيريِّ:

اكتسحت ثنائية ميسي ورونالدو في السنوات الأخيرة العالم برمَّتهِ، إذ أُختزلت كرة القدم في هذه البذرةِ الإعجازيَّة المفصولةِ إلى نوايتين بمقابل انطفاء جذوة المواهب البرازيليَّة والإيطاليَّة، ولعلَّ استطالة المنافسةِ بينهما يرجعُ إلى البعد الاحترافيِّ الذي شاب حياتهما خارج الملاعب الكرويَّة ناهيكَ عن الانضباط التام وتجنب التصرفات غير الصحيَّة كالسَّهر الطويل والانشغال بوسائط التواصل الاجتماعيِّ، والابتعاد عن الأضواء، والتحفظ عن إفشاء أسرار العائلةِ.

حصدت الشركاتُ الرياضيَّة والاقتصاديَّة أموالا طائلة من وراء هذا التنافسّ من خلال الاستثمار في هذه القطبية الثنائية حينما تبرز وجهًا لوجهٍ في مباريات الكلاسيكو، الذي يتغذَّى من الهوسِ الجماهيريِّ وانقسامه إلى طائفتينِ متنابذتينِ، الأولى تشايع البرغوث الأرجنتيني والثانية تناصر الدون البرتغاليِّ.

ولم يكن هذا الانقسامُ وليد النشوة الآنية التي تطرحها المنافسةِ في حيزهَا الزمنيِّ والمكانيِّ وإنما هي نتاجُ شبكة معقدة من الأنساق الثقافيَّة والبنيات الاجتماعيَّة المتحوِّرة بسببِ اضطراب عاطفيٍّ يندسُّ في الجهاز الشُّعوريِّ

الجمعيِّ: فالجماهير ترعبها فكرة عدمِ الانتماءِ، إنها قوقعةٌ مشروخة تحيل للرُّعبِ الوجوديِّ، "فمحيط اللا منتميٍّ كريه جدًّا، فهؤلاء الناس عادةً لديهم مقت شديد اتجاه الحياة، لأنهم يجلسون في غرفهم مجردين من الدوافع، فيظنون أنَّه ليس هنالك من سببٍ لفعلِ شيء آخر"[28].

من أجل ذلك كان رحيل ميسي عن النادي الكتالوني في صيفِ 2020 عزاءً للجماهير العالمية التي نشدت الانخراط في كيانِ الناديِّ تلبيةً لمشاعرها الجيَّاشة اتجاه اللاعب، لكنها انهارت حين علمت بالخبر الصاعق، فالانتماءُ تغرسهُ الأنا الواحدة في صفوف الجماعة نظير مؤهلاتهَا المغايرة التي تخرق قوانين المنطق والفيزياء ولا تتجاوبُ مع العادة.

علاوة على هذا فإن افتراق الجماهير إلى نزعتين مختلفتين هو خلاصة النزعةِ البدائيَّة والانجذابِ التقليديِّ للأمهر والأقوى الذي تحاكيِّ قدراته الوحوش السباعيَّة، لذلك ترتكن أغلب الدراسات العلمية الرياضية إلى إحصاء الخفة والسُّرعة والجهد البدنيِّ والضخامة العضليَّة لتفضيل أحدهما على الآخر.

فضمن مضامير السرعةِ، نشرت قناة علمية تحمل إسم MotionAthlete على يوتيوب، محاكاة ثلاثية الأبعاد؟ أجابت فيها بيقين حول أيُّهما أسرع ميسي أم رونالدو.

كشفت الدراسة بالتَّساند إلى إحصاءات علميَّة دقيقة أن ميسيِّ سجّل زمنًا قدره 11.95 ثانية، بينما رونالدو تفوق عليه بزمن بلغ 11.15 ثانية، بفارق يقارب الثانية الكاملة، وهو فارق كبير في سباقات السرعة"[29].

أما من حيثُ المشاركة في الاشتباكات فميسي سجل قيمة أعلى من رونالدو في هذه الفئة بحسب دراسة أجرتها قناة RMC الفرنسيَّة"[30].

مما هو جديرٌ بالذكر أنَّ هذه الدراسات هي تلبيةٌ لشغفِ الجماهير التي تودُّ بشدَّة تبرير اختياراتها بناء على إحصاءاتٍ مستقاةٍ من عوالم الحيوان: رشاقة الفهد، روغان الثعلبُ، اشتباكُ الحصانُ، وهو ما عناهُ الجاحظ بالضَّبط في كتابهِ الحيوان، "بابُ الإلهامُ في الحيوان" بقولهِ: وليس عند البهائم والسِّباع إلا ما صنعت لهُ، ونصبت عليه، وألهمَت معرفتهُ وكيفيَّة تكلُّف أسبابها والتَّعلُّم لها من تلقاء أنفسِها"[31].

فالإنسانُ مجبولٌ بالفطرةِ على اغتنامِ مزايا الحيوان في الكدِّ والمثابرةِ ومعاينةِ سرعتهِ ونمط تصيُّدهِ لفريستهِ ومن ثم ترقُّبُ تلكَ الصفاتِ في من يراه الأليق بحملهَا لأنه تتماشَى معَ جيناتِ البطلِ، ولهذا أطلق الإعلام وسم البرغوث على ميسيِّ تكنية عن ضآلة حجمِهِ وقدرتهِ على الاندساس في أوردة خصمهِ ومادامت منازعُ الناس

مشتركة في تقويم الصفات تبعًا لمستنطقاتِ المشهد يقول الجاحظُ معقبًا: وأكثر "ما عند البرغوث الطمور والوثوب"[32] أي الوثبُ وسرعةُ الرصدِ.

وتلك من الاستعاراتِ الباثةِ على معانيٍّ الفرجةِ التي يبثُّها جسد ميسيٍّ وهوَ يتسلقُّ سلَّم المجدِ ويبتدرَ أسلوبًا جماليًّا يشدُّ إليهِ الأنظار.

خاتمة:

قياسا على ما تمَّ سرده، تبقى الكرة المستديرة إحدى الأنساق الثقافيَّة الكبرى، التي ما فتئت بخطّها التأثيري المهول تقيم تحولات سلوكيَّة كبرى في حياة الشُّعوب، حتى أضحت كلُّ العقد النفسيَّة، الاحتياجات الاجتماعية، الحرمان العاطفي الأسريّ، الشقاء السياسي، والتدهور الاقتصادي يعوّض رمزيّا عبر الانزواء لفضاء السّاحرة المستديرة، والانغماس في عالمها **اليوتوبي** لحدِّ السُكر والثمالة.

عدا ذلك فإن كرة القدم هي امتدادٌ لظاهرة المصارعةِ كما فسرها رولان بارن فهيَ الأداةُ القادرة على حشدِ الجماهير ضمن نطاقاتٍ تتسمُ بالنديَّة والحماسةِ، وتبلغُ المسألةُ ذرى من الصراع حين تنقسمُ الجماهيرُ إلى قطبينِ متنازعينِ تقتاتُ من ورائهِ المنصات الإعلاميَّة، والشركاتُ الاقتصاديَّة الراعية لتلك المحافل.

كما أنها لا تتردَّدُ في صياغةِ استعاراتِ المجدِ والتمكينِ للزَّعاماتِ السِّياسية التي يهمُّها التحايُلِ على الوعي الجمعيِّ بتشييدِ مسارحِ كرةِ القدمِ والإلمامِ بفنونِ التكسبِ فيها من أجلِ الاستمراريةِ في السُّلطةِ، ناهيكَ عن قدرتِها في ابتعاثِ ثنائياتِ متضادة رمزيًّا {النصر، الهزيمة، الشرف، المذلة، الحرب، السَّلام} وهي كلُّها تصبو لتعريةِ عالمٍ مهزوزٍ تسوقهُ الفرجةِ لحدِّ إعدامِ العقلِ وردمِ المنطقِ..

قائمة الهوامش والاحالات

[1] صالح هويدا، **الهامش الاجتماعي في الأدب**، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2015، ص64.

[2] عبد الله الغذاميّ، **ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة**، المركز الثقافي العربيّ، ط1، الدار البيضاء، 1998، ص10.

[3] أبو منصور الثعالبي، **التمثيل والمحاضرة**، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، الدَّار العربية للكتاب، ط 2، 1981، ص 371.

[4] ماهر البطوطيّ، **بين الفن والأدب**، مؤسسة هنداوي للنشر، ط1، القاهرة، 2023، ص93

[5] عبد الله إبراهيم، النقد الثقافي مطارحات في النظريةِ والمنهج، **مجلة آفاق**، المغرب العدد:67، أبريل 2002، ص81

[6] رولان بارت، **هسهسة اللغة**، تر: منذر عيَّاشي، مركز الإنماءِ الحضاريّ، ط1، سوريا، 1991، ص460 .

[7] محمد العبَّاس، **المثقفون وجماليات كرة القدم**، موقع الأنطولوجيا للدراسات، السعودية، alantologia.com/blogs/70505/

[8] إيدواردو غاليانو، **كرة القدم بينِ الشمسِ والظلّ**، تر: صالح علمانيّ، طوى للثقافة والنشر، ط1، لندن، 2011، ص 34.

[9] أليكس بيلوس، **كرة القدم على الطريقةِ البرازيليَّة**، تر: عبلة عودة، هيئة أبو ظبي للسياحةِ والثقافةِ، ط1، 2013 ص39.

[10] عنترة بن شداد العبسيّ، **الديوان**، المطبعة الأدبية، ط،1، بيروت، 1891، ص3.

[11] رولان بارت، **أسطوريات**، تر: توفيق قريرة، منشورات الجمل، ط1، بيروت 2018، ص15.

[12] علي الظاهريّ، خطابات المدربين الحماسية وصفة تحفيز بين الشوطين، **مجلة البيان**، أبو ظبي، مقال صادر بتاريخ: 2022/11/26، www.albayan.ae/sports/world-cup

[13] هوميروس، **الإلياذة والأوديسا**، تقديم: صلاح فضل، تر: دريني خشبة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2015، ص70

[14] رولان بارت، أسطوريَّات، المرجع السابق، ص 22

[15] المرجع نفسه، ص21

[16] المرجع نفسهُ، ص22

[17] إيدواردو غاليانِي، **كرة القدم بين الشمس والظل**، المرجع السابق، ص29.

[18] المرجع نفسه، ص23

[19] عبد الرزاق الربيعي، **هوامش ومتون في حمَّى الساحرةِ المستديرةِ**، جريدة عمان، الصادرة بتاريخ، 23 نوفمبر 2022، www.omandaily.com

[20] وداد الكواري، **كما تحب، رسائل أدبيَّة**، دار هماليل للنشر، ط1، أبو ظبي، 2015، ص45.

[21] إيدواردو غاليانِي، **كرةُ القدم على الطريقةِ البرازيليَّة**، المرجع السابق، ص209.

[22] ينظر: محمد مراد، أسرار سوق السحر وعلاج لاعبي الكرة بالحيوانات فى توجو.. فيديو وصور، مجلة اليوم السابع، القاهرة، مقال بتاريخ: 16 / نوفمبر 2020، www.youm7.com/story/

[23] إيدواردو غاليانِي، المرجع السابق ص80.

[24] المرجع نفسه ص81

[25] آرثر أزبرج، **النقد الثقافي تمهيد مبدئيّ للمفاهيم الرئيسيَّة**، تر: وفاء إبراهيم، المشروع القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2003 ص36.

[26] ديمة محمد، لن يغفر الله لروبرتو باجيو".. قصة أشهر دعاء في تاريخ كأس العالم، **مجلة العين الإخبارية**، مقال صادر بتاريخ: 8/17 /2022 al-ain.com/article/baggio-vatican-prayer-worldcup

[27] لوثيانو بيرنكي، **أغرب الحكاياتِ في تاريخِ المونديال**، تر: محمد الفولي، مسعى للنشر والتوزيع، ط1، 2018، ص219.

[28] ينظر: كولن ولسون، **اللا منتمي**، تر: أنيس منصور، دار الآداب بيروت، ط5، 2004، ص51.

[29] سعيد حمد، **من الأسرع؟ ميسي ورونالدو في سباق محاكة رقمية**، موقع scores365،: 17 / 6 /2025، www.365scores.com/ar/news/magazine

[30] قناة *RMC Sport* **تحليل مقارن لأداء ميسي ورونالدو في فئة الاشتباكات الفردية**، 2023، /www.rmcsport.bfmtv.com

[31] الجاحظ، **الحيوان**، ج2، تح: عيون السود، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2004، ص329.

[32] الجاحظ، المرجع نفسه، ج5، ص119.

قائمة المصادر والمراجع

1. أبو منصور الثعالبي، **التمثيل والمحاضرة**، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، الدَّار العربية للكتاب، ط 2، 1981
2. آرثر أزبرج، **النقد الثقافي تمهيد مبدئيٌ للمفاهيم الرئيسيَّة**، تر: وفاء إبراهيم، المشروع القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2003.
3. أليكس بيلوس، **كرة القدم على الطريقةِ البرازيليَّة**، تر: عبلة عودة، هيئة أبو ظبي للسياحةِ والثقافةِ، ط1، 2013.
4. إيدواردو غاليانو، **كرة القدم بينِ الشمسِ والظلِّ**، تر: صالح علمانيٌ، طوى للثقافة والنشر، ط1، لندن، 2011.
5. الجاحظ، **الحيوان**، ج2، تح: عيون السود، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2004، ص329.
6. ديمة محمد، لن يغفر الله لروبرتو باجيو".. قصة أشهر دعاء في تاريخ كأس العالم، **مجلة العين الإخبارية**، مقال صادر بتاريخ: 8/17 /2022 al-ain.com/article/baggio-vatican-prayer-worldcup
7. رولان بارت، **أسطوريات**، تر: توفيق قريرة، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2018.
8. رولان بارت، **هسهسة اللغة**، تر: منذر عيَّاشي، مركز الإنماءِ الحضاريِّ، ط1، سوريا، 1991.
9. سعيد حمد، **من الأسرع؟ ميسي ورونالدو في سباق محاكة رقمية**، موقع scores365، مقال منشور بتاريخ: 17 / 6 / 2025، www.365scores.com/ar/news/magazine
10. صالح هويدا، **الهامش الاجتماعي في الأدب**، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2015.
11. عبد الرزاق الربيعي، **هوامش ومتون في حمَّى الساحرةِ المستديرةِ**، جريدة عمان، الصادرة بتاريخ، 23 نوفمبر 2022، www.omandaily.om
12. عبد الله إبراهيم، النقد الثقافي مطارحات في النظريةِ والمنهج، **مجلة آفاق**، المغرب العدد:67، أبريل 2002.

13. عبد الله الغذاميّ، ثقافة الوهم، **مقاربات حول المرأة والجسد واللغة**، المركز الثقافي العربيّ، ط1، الدار البيضاء، 1998.
14. علي الظاهريّ، خطابات المدربين الحماسية وصفة تحفيز بين الشوطين، **مجلة البيان**، أبو ظبي، مقال صادر بتاريخ: 11/26/ 2022، www.albayan.ae/sports/world-cup
15. عنترة بن شداد العبسيّ، **الديوان**، المطبعة الأدبية، ط،1، بيروت، 1891.
16. قناة *RMC Sport* تحليل مقارن لأداء ميسي ورونالدو في فئة الاشتباكات الفردية، 2023، /www.rmcsport.bfmtv.com
17. كولن ولسون، **اللا منتمي**، تر: أنيس منصور، دار الآداب، ط5، بيروت، 2004.
18. لوثيانو بيرنكي، **أغرب الحكاياتِ في تاريخِ المونديال**، تر: محمد الفولي، مسعى للنشر والتوزيع، ط1، 2018.
19. ماهر البطوطيّ، **بين الفن والأدب**، مؤسسة هنداوي للنشر، ط1، القاهرة، 2023.
20. محمد العبَّاس، **المثقفون وجماليات كرة القدم**، موقع الأنطولوجيا للدراسات، السعودية، alantologia.com/blogs
21. محمد مراد، أسرار سوق السحر وعلاج لاعبي الكرة بالحيوانات فى توجو.. فيديو وصور، **مجلة اليوم السابع**، القاهرة، مقال بتاريخ: 16 / نوفمبر 2020، www.youm7.com/story/
22. هوميروس، **الإلياذة والأوديسا**، تقديم: صلاح فضل، تر: دريني خشبة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2015
23. وداد الكواري، **كما تحب، رسائل أدبيَّة**، دار هماليل للنشر، ط1، أبو ظبي، 2015.